صور من الحياة :

زوجة تنهـــار !

للأســـتاذ كامل محمود حبيب

هب الفتى من فراشه — لدى مطلع الفجر — يستقبل هبّات النسيم اللينة الرقيقة ويستمتع بأنفاس الصبح الندية وهى تعابث فلول جيش الليل المتداعمة نحو الغرب فى رهبة وفزع . ووقف يتأمل ماء النيل وهو ينسرب متدفقاً إلى غير غاية ، ويرنو إلى الأشجار الباسقة على الضفة الأخرى وإن أغصانها المتعانقة لتتوعّر فى فتور وتراخ كأنما تجاهد لتلقى عن نفسها لباس النوم الكثيف . وأحس الفتى — وهو فى مكانه — بالقوة تتدفق فى أعصابه وبالنشاط يمرح فى إهابه وبالنشوة تسرى فى دمه ، ونسى يوم أن كان طفلاً رطيب العود لين العظم مسلوب القوة واهى الإرادة وقد أصابه اليتم والفقر فى وقت معاً ، ففقد أباه صغيراً ليعيش إلى جانب أمه وحيدين فى ركن من دار ، ونسى يوم أن كان صبياً تضنيه المسكنة وتفريه القلة ، يحس وطأة الشظف ولأواء الضيق ، يتوارى — أبداً — عن أترابه خشية أن تقتحمه عين وهو فى أسمال بالية وضيعة ، وخيفة أن ينساله لسان سليط وهو يقضم كسرة خشنة تافهة . ونسى يوم أن صار شاباً ينطوى على نفسه فى تخاذل وهوان لأنه لا يستطيع أن يتطاول إلى مكانة رفاقه وهو خاوى الوفاض صفر اليدين . لقد كانت أمه تستفرغ وسع الطاقة لتدفع عن مكانه فى المدرسة ثم يصيبها البهر والإعياء فلا تستطيع أن تحبوه بالجديد من اللباس ولا اللين من العيش ... فعاشت إلى جانبه تدفعه إلى الغاية التى تصبو إليها نفسها وتصبر هى على الجوع والعرى فى رضى وإيمان .

أما الآن فقد تخرج فى مدرسة المعلمين العليا وعين مدرساً فى مدرسة (كذا) الإبتدائية ، فهو يستطيع أن يحبو نفسه بالكريم من الطعام والشريف من اللباس فى غير عنت ولا إرهاق ، والدنيا رخاء . فراح يتأنق فى مأكله وملبسه ومسكنه ويشفق على نفسه من أتاتين المتعة ما أعجزه أن يناله فى عمر الفاقة والتربة . وأحس اللذة والسعادة فى حياته الجديدة لا يشوبهما إلا أنه فقد أمه — القلب الوحيد الذى يتوثب حناناً وعطفاً وينبض شفقة ورحمة . فعاش من بعدها وحيداً ، لا يصحبه فى موكب الحياة إلا خادمه وهو فتى ريفى هرب من جفوة الحقل ليسكن إلى رخاوة المدينة ، وإلا بعض زملائه فى المدرسة .

واستشعر الفتى الوحدة توشك أن تقض مضجعه وتمكر صفو أحلامه وتقذف به فى بيداء من الخواطر المضطربة ، فهو لا يحس عطف الأب وقد ضمه القبر منذ عمر طويل ، ولا حنان الأم وقد ودعته الوداع الأخير منذ سنوات خمس ، ولا رقة الأخ وهو وحيد أبويه . أما أهله فقد تنكروا له يوم أن كان فى شظف العيش ورقة الحال ، فآلى على نفسه ألا يزور ديارهم أبداً وألا يعطف على فقير فيهم وألا يستعين بذى جاه منهم أو يلجأ إلى ذى مال . ومضت الأيام على نسق واحد وقد أقفرت من قلب ينبض بحبه أو نفس تضطرب بالعطف عليه فذاق لذع الوحدة ومرارة العزلة .

وجلس الفتى — ذات يوم — إلى زميل له يحدثه حديثه وإن نبرات صوته لتكشف عن أسى دفين عاش فى قلبه منذ أن كان طفلاً ، ونما على السنين وربا واشتد غرسه ، وإن عبراته المترقرقة لتنبئ عن شجو يقطع نياط القلب ويقد أوتار الفؤاد . ورق صاحب لصاحبه فقال الزميل « أرأيت — يا صاحبى — مرض نفسك وعلة قلبك ؟ إن لكل داء دواء يستطب به ! » قال فى لهفة ، « وما دواء دائى ، وقد استعصى على أن أطب له ؟ » قال « لا تثر عليك ، إن الزوجة والولد هما دواء قلبك وشفاء نفسك ، إنهما ولا ريب يمسحان على آثار الضيق ، ويمحوان علامات الضنا ، وينفثان فى الدار البهجة والنور ، ويبثان فى القلب السرور والنشوة » فقال الفتى « لا عجب ، ولكن أنّى لى أن أجد الزوجة وأنا أمقت أهل وأبغض عشيرتى وأفزع من ذوى قرابتى » قال « أغلباً أن تتزوج من أهلك وفى الدنيا سواد وسعة » قال « أما أنا فلا أعرف داراً أجد فيها شفاء نفسى » قال « ماذا ترى فى ابنة الأستاذ فلان ؟ » قال « هى فتاة لا أستطيع أن أسكن إليها ، فأنا أرى فى أبيها الرجعية والتزمت وضيق العقل وسفاهة الحلم ، والفتاة فى كنف مثل هذا الأب تستشعر السجن والذل معاً ، فإذا انطلقت من سجنها انطلقت من قيود الشرف والكرامة »

قال « هذا وهم باطل ، ولكن نفس المزب تصور له خواطر تافهة مضطربة لتقعد به أن يكبل نفسه بالزواج » قال الفتى « اطالما طافت الفكرة بذهني فما دفعني عنها إلا أني لا أجد من يتحدث بلساني ويكشف عن ذات نفسي » فقال الزميل « لاعليك ، فأنا — منذ الآن — رسولك ! »

وانطلق الرجل يمهد السبيل لصديقه الفتى ، فما لبث الأب أن اطمأن إلى الرأي وأسلس للخاطبة فسميت الفتاة على فتاها .

* * *

وذاق الفتى — لأول مرة في حياته — لذة الحياة وهدوء النفس وراحة الضمير وسعادة العيش ، فزوجته فتاة في ربيع العمر ورونق الجمال ، تتألق شباباً وبهاء ، وتشع نوراً وضياءً ، وهي زوجة من طراز ممتاز ، ترعى شأن الزوج وتحفظ ودّه وتقوم على حقه ، فيها اليقظة والنشاط وفيها الرقة واللطف . فهي تبذل جهد الطاقة لتهيىء داراً أنيقة فيها النظافة والنظام وفيها الهدوء والراحة وفيها السعادة والطمأنينة . وعاش الفتى إلى جانب زوجته يسعد بها ويرتاح إلى لقياها . ثم أقبل الطفل الأول يملأ الدار بهجة ورواءً ، ويشد قلباً إلى قلب ويضم فؤاداً إلى فؤاد ، وانطوت الأيام

وجاءت الحرب تنذر بخطر عظيم ، وجاء النلاء يريد أن يحطم سعادة قلبين ، فصلت وجه الفتى غبرة قاتمة حين رأى راتبه الضئيل يتضاءل أمام صفعات النلاء وهي قاسية عنيفة ويتهاوى أمام حاجات العيش وهي كثيرة ملحة ، والحكومة تنظر ولا ترى ، وتتحدث ولا تفعل .

وأفزع الفتى أن يرى سعادته توشك أن تنهار لضيق ذات يده فانطلق إلى المدير يكشف له عن خلجات ضميره ويكشف أمامه عن حاجات نفسه ثم راح يستجدي عطفه ويسأله أن ينتدبه مدرساً في السودان ليجد الحياة الطيبة والنعمة الوارفة . ورق قلب المدير للفتى الصريح فأجاب طلبته .

وعجل الفتى إلى زوجته يزف إليها البشرى ... بشرى راتبه الذي زاد ضعفين في لمحة عين . وعجبت الفتاة أن يضاعف راتب زوجها مرة واحدة فسألته في لهفة « وكيف ؟ » قال « لقد انتدبت مدرساً في السودان » وابتسمت الزوجة فقال لها « أو يزعجك أن أعمل ؟ » قالت « حسبي أن أجد لذة الحياة إلى جانبك وأن أسعد بخفض العيش في جوارك ، ومالي هنا مأرب ولا حاجة » وأطمأنت نفس الفتى حين وجد الخلاص ، وحين فر — هو وزوجه وأولاده — من بين فكي الفاقة والنلاء والضيق قبل أن تعصره عصراً يهد من كيانه ويزعزع من سعادته .

يا لرجولتك أيها الفتى ! لقد فزعت عن دارك ووطنك لتكون أباً وزوجاً تستعذب الغربة وتستمرىء الضنا وتصبر على رمضاء الحر ولفحة الهاجرة ، لتهيىء لزوجك وبنيك حياة طيبة فيها الرفاهية والخفض .

وعاد الفتى — بعد عامين — مريضاً تتناهبه الأسقام من وقدة القيظ وتتوزعه الأوجاع من لظى الحر ، فارتد إلى القاهرة يلتمس الشفاء من علته ويطلب البرء من سقمه وإلى جانبه زوجته ترف حواليه رفيفاً حلواً يخفف من ضنى نفسه ويسمح على آلام جسمه .

وطال به المرض والفتاة إلى جانبه يتقاسمها الفتور والملل ويفزعها السجن والمرض ، وإن فيها شباباً يصبو إلى الشارع ويهفو إلى السينما وينزع إلى التنزه فما تجد السبيل ، غير أنها لم تعدم تعلة تتعلل بها لتفر من الدار ساعة أو بعض ساعة . وبدا عليها الضيق على حين تتصنع بالوفاء ، وأصابها الضجر وهي تتخلق بالنشاط . وللمريض عين نفاذة وأذن واعية وإحساس مرهف ، فأرخى الفتى لزوجته العنان عليها تجد السلوة والمتاع .

واندفعت الفتاة إلى الشارع وإلى السينما ، لاهية بالمريض ولا تعنى بشأنه ، وخلفته بين يدي الخادم تعبث به وتهمل أمره .

وضاق الفتى بحماقة الزوجة الشابة حين رآها تسرف في الزينة وتتزين في التطرية وتفرّط في أمر الدار والزوج والولد ، فراح يحدثها حديث خواطره في لباقة ولين . ولكن الزوجة كانت قد علقت شاباً آخر ذاقت إلى جواره حلاوة الهوى ورشفت رضاب المتعة ونقمت غلة الحرمان .

وعند الصباح انطلقت الخادم لتوقظ الزوجة فألفت فراشها خالياً ... لقد طارت الزوجة الخائنة مع شيطان من الناس ... طارت لتفر زوجها وحيداً على فراش المرض يقاسي ألم المرض ويعاني هم الزوجة .

ونظر الزوج إلى بنيه وهم يتدافعون إلى حجرة أمهم وينادون